المظاهر والأشكال

تصرفنا عن الحقائق والأعمال

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا

العمل المثمر المضمون البقاء والتقدم والنجاح ، هو العمل الذى يقوم على العقيدة ، ويدفع اليه الإيمان وتبعثه الرغبة فى القيام به . أما العمل الذى يدعو اليه التظاهر والتفاخر والذى يقوم على إرضاء شخص أو جماعة أو سلطة، فعمل مآله البوار، مهدد بالترك والإهمال حسب انعدام الحافز الخارجى أو تغيره .

نعم . إن حب الثناء طبيعة فى الإنسان، وإن الغرض أو المباهاة غريزة إنسانية، ولكن ينبغى أن ترتكز المباهاة على أعمال تبعثها العقيدة وتحفز اليها الحماسة ، ثم يجىء الثناء عليها والافتخار بها غرضين تاليين لا غرضين أصيلين .

ويبدو لمن يلاحظنا فى المدرسة والبيت والديوان والمجتمع ، أننا نصنع كل شىء فى حياتنا لمظهره لا لحقيقته ، وللمباهاة لا للانتفاع به، ويعنينا من جميع تصرفاتنا الإعلان والإذاعة ، لا القيام بالواجب ، ولا تحقيق النفع الذى يثمره العمل بطبيعته .

تصاحبنا هذه الروح فى المدرسة فتبدو فى مظاهر كثيرة نشير اليها هنا إشارة عابرة إذ نقول : إن الغرض من كل ما يقع فيها ليس التعليم وليس التربية، ولكن مظهر التعليم ومظهر التربية الذى يراه الرؤساء .

فالألعاب الرياضية مفروض أنها قررت درسا أصليا فى المنهج لتقوية الأجسام وتقويم الأبدان من جهة ، ولتكوين الأخلاق وغرس بذور الفضائل من جهة أخرى ، وللرانة على نوع من التضامن الاجتماعى من جهة ثالثة .

والمفروض حينئذ أن ينال كل تلميذ منها نصيبا ، وأن يكون الضعفاء والشواذ أحق الجميع بزيادة العناية بأمرهم فيها ، حتى تستقيم أجسامهم وأخلاقهم ، وحتى يجدوا من الفرص الإصلاحية فى اللعب ما قد يعز عليهم فى الدرس .

ولكننا نحن عكسنا الآية ، وصرفنا كل غايتنا من الألعاب الرياضية إلى المباريات والحفلة العامة التى يدعى إليها الوزراء والحكام والناس العظام . وعلى هذه القاعدة جعلنا نختار لقسم الألعاب فى كل مدرسة التلاميذ الأقوياء البنية الذين مرنوا على أداء التدريبات

الرياضية، وبعبارة أخرى التلاميذ الذين ليسوا فى حاجة لهذه الألعاب من الوجهة البدنية . أما الأخلاق فلم تخطر لنا على بال ، إذ أنها لا تظهر فى المباريات والحفلات ، فليست إذن بذات بال !

وابتدعت وزارة المعارف فى الأعوام الأخيرة بدعة طيبة وهى " النشاط المدرسى" الذى افتتحت معارضه فى هذا العام بمهرجانات وحفلات. وكان القصد من هذا النشاط أن تفسح لمواهب التلاميذ وسائل الظهور فى غير حجرات التدريس، وأن تجعل منه وسيلة لمرانة الملكات العقلية بعيدا عن القيود المعتادة فى الحصص، وأن تعلم التلاميذ قضاء أوقات الفراغ فى عمل نافع أو رياضة محبوبة ، حتى لا ينفقوها — متى كبروا — فى العبث الفارغ أو الأفكار الشريرة .

ولكننا كعادتنا حولنا هذا النشاط عن الغرض الأصلى منـه الى المظهر والإعلان ، وجعلنا غايتنا الأولى والأخيرة هى "المعرض" واخترنا لكل قسم من أقسامه أمهر التلاميذ فى المدرسة على أعمـال هذا القسم . أما الضعاف فلا علينا منهم، ماداموا لا ينفعون فى المباراة والسباق . وألهبنا أيدى التلاميذ وظهورهم بالعمل المرسوم المحدود فى هذا النشاط الذى نزعم أنه حر وطليق ! ! لأن المعرض ينتظرنا ولأننا نريد أن نرضى الرؤساء وننال الجوائز، وعفاء بعد ذلك على كل غرض آخر من أغراض النشاط المدرسى .

والتدبير المنزلى فى مدارس البنات جعل ضمن البرنامج لتدريب الفتاة على حياة البيت كى لا تكون غريبة على شؤون المنزل حين تأوى اليه ؛ ولتنتفع بمـا درست فتطبقه فى دارها ببصيرة وإتقان لا يتهيآن للفتاة الجاهلة .

كان ذلك هو القصد العملى، ولكن المدارس أحالته الى مظهر أجوف لا ينطبق على الحياة العملية فى شىء؟ ويكفى أن تعلم أن "خرط البصل" لا يتم فى المدرسة إلا بالشوكة والسكين لأن هذا هو المثل الذى يحقق المظهر الشـاذ الذى يلفت النظر ، أما ربة بيت أو الطباخ فلا يخرط البصل إلا بيده وبالسكين ضنا بالوقت أن يضيع فى عمل تافه صغير !

ويكفى أن تكون مدعوا مرة فى حفـلة تقيمها مدرسة معلمـات فترى كل طبقا من الحلوى من صنع التلميذات فيعجبك ، فتسأل عن تكاليفه فيقال لك : " سـتة وتسعون قرشا" ! أى نعم، الفتاة التى تخرج من مدرسة المعلمات لتتزوج موظفا صغيرا لا يزيد مرتبه على ثمانية جنيهـات لا تستطيع أن تصنع له طبقا من الحلوى إلا بستة وتسـعين قرشا ، أو بأربعة وعشرين لأن الطبق الكبير كان يكفى ثمانية أشخاص !

ذلك هو "التدبير المنزلى" فى مدارس البنات . شيء للمظهر والزينة لا للعمل والمرانة .

والمدارس الصناعية مفروض أنها أنشئت لسد حاجة السوق من الصناع المهرة المثقفين قبل أن تنشأ للزينة والمعارض . ولكن التدريب فى هذه المدارس يتجه إلى تحقيق الكماليات وإلى صنع الأشياء الفاخرة وحدها، لا إلى إنتاج المصنوعات التى تروج فى الأسواق. وحسبك زيارة لمعروضات هذه المدارس المرتفعة الأثمان لتدرك الشرود فى توجيه هؤلاء الطلاب . فأنت لا تستطيع أن تشترى أثاث حجرة مكتب مثلا فى حدود خمسة وعشرين جنيها ، ولا حجرة مائدة فى حدود ثلاثين جنيها أو أربعين ، ولابد أن تسمع أرقاما ذات صفرين على اليمين، فهل للترفين وحدهم عمل هؤلاء الصناع ؟

لا شك فى أن هذا هو الذى جعل خريجى هذه المدارس غير رائجين فى سوق العمل ، فلا بد من تدريبهم بعد تخرجهم على مصنوعات السوق حتى يستطيعوا الانتفاع بما درسوا فى المدرسة . وهذه لفة طويلة هم أولى بالوقت الذى تستغرقه فى حياتهم المحدودة .

وكراسات التلاميذ وأعمالهم فى الدروس قصد منها إلى تعليمهم وتصويب أخطائهم . ولكنها فى نظر المدرسين مجمولة لاطلاع النظار والمفتشين والرؤساء قبل كل شيء ، فيجب أن يكفلوا لها النظام بأى ثمن ، ولو على حساب غرائز التلميذ وتدريبه العلمى . وتبلغ الدرجة أن "يسود" التلاميذ فى كراسات يصححها المدرسون ثم "يبيضوا" المصحح فى كراسات أخرى يراها الرؤساء وتظهر فيها النظافة والتنميق .

والتعليم للتثقيف . ولكنه فى مدارسنا موجه كله للامتحان . فلا على المدرسة من ارهاق التلاميذ واتباع أخطر الطرق وأخطأ الوسائل فى تربية عقليتهم وشخصيتهم لضمان النجاح فى الامتحان ، ذلك المذبح الرهيب الذى تقدم فيه القرابين من شخصيات التلاميذ وعقلياتهم ومن ثقافاتهم أيضا .

وهؤلاء التلاميذ الذين يتعرضون لكل هذا الذى ذكرته وهم فى طور التعليم ، والذين يشبون وهم مؤمنون بالمظهر وبالاعلان ، بعيدون عن حب الواجب وطلب الحقيقة ، هم رجال الغد ، وهم الموظفون فى الديوان ، والآباء والأمهات فى المنازل ، واللبنات الجديدة فى المجتمع المنظور .

وهم لا يتعرضون للانطباع بهذا الطابع فى المدرسة وحدها . ذلك أن روح المظاهر والاشكال تصاحبنا فى المنزل، فحجرة الاستقبال هى الحجرة الأولى فى نظامنا المنزلى. أما حجرات النوم وحجرة المكتب فقلما نمنحها هذه العناية ، وأما المطبخ فآخر ما نفكر فى جعله لائقا بالساعات التى تقضيها ربة المنزل فيه . والسبب فى العناية بحجرة الاستقبال دون سواها هو روح الاعلان وحب المظاهر ، مع أن استعمالها ومدة وجودنا فيها قليلان بالقياس إلى الحجرات الأخرى .

ونحن نعلن عن أفراحنا وعن مآتمنا ، ونتباهى بأسماء المجاملين فى الأولى والمعزين فى الثانية ، وتقيم السرادقات الفخمة ، وندعو من لا تربطنا بهم صلة من قرابة أو صداقة ، لأنه لا يهمنا أن نفرح أو أن نحزن ، ولكن تهمنا مظاهر الفرح ومظاهر الحزن المصطنعة المتكلفة.

وتصاحبنا هذه الروح كذلك فى المجتمع والأعمال العامة ، فالبرامج الحزبية والبيانات الوزارية ، والمشروعات الحكومية أو الأهلية كلها موجهة للدعاية وللاعلان وليست ثمرة للاقتناع بفائدتها أو العزم الحقيق على تنفيذها . وكذلك تفعل الجماعات الأدبية والعلمية مع الأسف الشديد .

وهناك مشروعات ضخمة تعلن عنها هذه الهيئات ، وهى واثقة أنها لا تملك وسائل تنفيذها بل قد تكون ممتنعة بعدم صلاحيتها ، ولكنها تصلح للدعاية والضجيج ولها مظهر خلاب وبريق ، فهى تعرضها لتؤدى هذه الغاية وحدها ، وتعتمد على ضعف ذاكرة الجمهور وعلى تقلب الأوضاع والأيام ووجود المعاذير والعراقيل .

وبسبب تربية الطفل فى البيت والمدرسة هذا النوع من التربية ، وما يراه بعد ذلك من أعمال الهيئات فى المجتمع ، نراه قلما يتجه اتجاها عمليا وقلما يؤدى عملا لاقتناعه به اذا لم يكن له مظهر وضجيج وبريق . وذلك هو آفة التفكير والتنفيذ .

*

نحن فى حاجة الى تغيير هذه العقلية فى كل مكان : فى البيت ، حيث يجب أن نعنى بحجرات المنزل وأدواته بحسب قيمتها العملية لا بحسب مظهرها ، وحيث نكتفى فى أفراحنا ومآتمنا وحفلاتنا بما يحقق الغرض الأصيل منها من فرح أو حزن أو تعارف وينفى ماعدا ذلك من المظاهر الفارغة الجوفاء .

وفى المدرسة ، حيث نوجه الدراسة والألعاب الرياضية والنشاط المدرسى إلى الأغراض المقصودة النافعة للتلاميذ ، ونحدف من تفكيرنا العمل للمناظر والمفتش أو الحفلات والمعارض أو الامتحان والمباريات .

وفى النشاط الحكومى والاجتماعى ، حيث ينبغى أن نجعل همنا للافادة والحقائق لا للإعلان والمظاهر .

يجب أن نتعلم العمل الصامت الذى يعلن عن نفسه ، وأن نتعود أداء الواجب لأنه واجب لا لأنه يصلح للضجيج والتمويه ، وأن نقتصد فى الإذاعات والبيانات قبل أن نحقق ما يستحق الإذاعة والبيان .

يجب أن يكون الحافز للعمل نداء يهيب بنا من أعماق النفوس وقرارات العقائد ، لا رغبة فى إرضاء الرؤساء أو تصفيق الجماهير .

محمد على علوبة